

على بك فوزى

للأستاذ أحمد أمين

لم يتجل لى وفاء المصرى وإخلاصه كما رأيته أول أمس فى جنازة أستاذى وصديقى على بك فوزى . فقد استقبل النعش فى محطة مصر عدد كبير من أصدقائه وساروا فى مشهده يعزى بعضهم بعضاً إذ أبى الفقيده أن يكون له ولد ولا مال ولا جاه ؛ فكان أول مشهد عظيم رأيته لله وحده . وكان أنبل ما رأيته منظر احمد باشا شفيق وقد تقدمت به السن وصعب عليه السير يتحامل على صديق ، ويسير من المحطة إلى جامع الكخيا ، ثم أسلم عليه وأسأله هل تعرف الفقيده فيقول : لا لم أره فى حياته ؛ ولكنى سمعت نبيل أخلاقه فرأيت وفاء للفضيلة أن أسير فى جنازته .

رحمة الله عليه ، فقد كان أمة وحده ، ولم أر له نظيراً فى كل من عاشرت . ولئن كان أكثر الناس نسخاً متشابهة من كتاب تافه مطبوع ، فقد كان نسخة خطية من كتاب قيم نادر . متمدن على آخر طراز من طراز المدنية فى ملبسه وأناقته وآدابه ولباقة ، متصوف إلى آخر حدود التصوف فى زهادته واحتقاره للبال والجاه والمناصب ، وفوق ذلك كله فى روحانيته السامية . لم يفخر فى حياته بنسب ؛ على أنه كان جديراً أن يفخر به لو وجد الفخار مدخلاً إلى نفسه ، فقد كان جد أبيه المملوك الشارد الذى قفز بفرسه من القلعة ؛ وناهيك بعظمة الممالك أيام سطوتهم .

ولم يفخر بعلمه وهو الواسع العلم العميق التفكير ؛ يجيد العربية إجادة قل أن يكون له فيها نظير ؛ ويتكلم الإنجليزية كأحد أبناءها ؛ ويحذق الفرنسية والألمانية والتركية . ثم لا ينظر إلى اللغات على أنها مقاصد بل على أنها وسائل للثقافة ، فاتخذ هذه اللغات كلها أداة يتعرف بها الثقافات المختلفة ويقف على أحسن ما ألف فيها ؛ هذا إلى صحة فى النقد وقوة فى الملاحظة وشخصية بارزة لا تخضع لأى مؤلف مهما عظم . ومع هذا كله تجلس إليه إن لم تكن تعرفه فكأنه أسمى غنى جاهل بكل

شئ ، فهو ذهب خالص غطى بقشرة من طين لا تعرفه حتى تحكه وتحكه وتصل إلى باطن نفسه ؛ ولا يكون ذلك إلا لتلاميذه وخلصائه ، وحتى مع هؤلاء يقدم اليك نتيجة معارفه الواسعة وتفكيره العميق وهو محتف وراء ذلك يحاول ألا يشرك بنفسه ، وإنما يشرك بالفكرة نفسها ، فكأن كلمة : أنا ، لم تكن فى معجمه .

عرفته أول أمره أستاذاً فى مدرسة القضاء يدرس لنا التاريخ الإسلامى ؛ وتطالير إلينا قبل قدومه أخبار منشورة عن تازيخ حياته . إنه تخرج فى مدرسة المعلمين ، ثم سافر فى بعثة إلى إنجلترا ، ثم عاد منها بعد أن نال إجازة من جامعها ، وهى أوصاف لم تتحمس لها كثيراً ، فكنا قد شاهدنا بعض من سافروا إلى أوربا ورجعوا بشهاداتهم الضخمة وألقابهم العديدة وكانوا كالبندقة الفارغة : منظر ولاخبر ، ورواء فى العين ، ولاشئ فى اليدين ؛ فقلنا لعله أحد أولئك الذين لم يكسبوا من أوربا إلا اعوجاجاً فى اللسان ورطانة فى الألفاظ وإنكاراً لعظمة أى شئ مصرى ، وعصية لكل تافه أجنبي .

رحبنا أنفاسنا عند قدومه نستطلع طلعتة دخل علينا رجل قصير القامة . يحاول أن يخفى قصره بطول طربوشه وارتفاع حذائه ، أسمر اللون فى وسامة ، واسع العينين فى خجل ، كبير الرأس فى عظمة . يتأبط كتباً كثيرة العدد لا يتناسب حجمها مع حجمه بين عربية وإنجليزية ، ويأبى أن يحملها الفراش عنه كما اعتدنا أن نرى من غيره .

وأكبر ما راعنا منه أنه بدأ درسه بعبارة عربية فصيحة التزمها فى كل درسه ، وفى كل دروسه بعد ، وفى كل أحاديثه معنا فى الدرس ، لا أعرفه شذ عنها مرة واحدة ، فى طلاقة وعذوبة واستشهاد بالأدب العربى والشعر العربى ، مما لم أعرفه لآزهرى ولا لمدرس من دار العنوم . يجيد فهم عبارة الطبرى على صعوبتها ، وابن خلدون على عمقها ، والكتب الإنجليزية العميقة ، ويوضح ذلك كله بصياغة شبيهة لذينة ، ويطبعها كلها بالطابع العربى فلا تسمع لفظة إنجليزية ، ولا تستعصى عليه عبارة يريد أن يترجمها من لغة أجنبية

وما زادنا إعظماً له أنه لم يكتف بالدرس بل اتصل أيضاً بنفوسنا، فكان يخرج من الدرس أحياناً إلى شرح حالة نفسية أو ظاهرة اجتماعية يصل بها إلى أعماق نفوسنا، وأخذنا بالنظام الشديد، وكان يقدسه كل التقديس، فيشتمز من الكلمة النائية ومن اللفظة تكتب منحرفة قليلاً عن موضعها، ومن النكتة إن كان فيها قليل من الشذوذ.

ولاتسل عنه في ورق الامتحان، فقد كان يصحح أوراقنا في دقة غريبة، ويأتي بالأوراق مدونة فيها ملاحظاته في اللفظ والمعنى والأسلوب والخطأ الإملائي والخطأ التاريخي، وينتقدنا انتقاداً لا ذعاً لكن ظريفاً.

من أجل هذا كان الأستاذ محبوب والأستاذ الجليل والأستاذ الظريف والأستاذ العالم.

لم تطل دراسته في مدرسة القضاء، وانتقل إلى وظيفة إدارية. ولم يطلب الانتقال لرغبة في مال فهو يحتقر المال، ولا في جاه فهو يحتقر الجاه، ولا رغبة عن التعليم فهو يحب التعليم ويصارحنى أن أكبر غلطة ارتكبها أنه تمحول من التعليم إلى الإدارة، ولكنه كان شديداً، وكان عاطف بك ناظر المدرسة شديداً، وكان لكل شخصيته القوية، ولكل آراؤه في سياسة الطلبة، فتصادما تصادماً نفسياً من غير أن ينبس أحدهما بكلمة؛ وكان أن خرج «على فوزى» من المدرسة آسفين عليه كل الأسف شاعرين أنه لا يمكن أن يعوض، وكان «عاطف» أول من حزن على خروجه بعد أن حاول كل محاولة في استبقائه.

كان حساساً إلى درجة لا تتصور. تجرحه الكلمة الخفيفة لا يشعر بها أحد، والاشارة القليلة تصدر من رئيسه فيظنها بالغة منتهى الشدة، والإيماء المعتادة فتحز في نفسه وتصل إلى أعماق قلبه.

فكيف يستطيع بعد أن يكون موظفاً؟ لقد تداول عليه وزراء عديدون لا أسميهم، كل منهم جرح نفسه جرحاً بل جروحاً. وأى الرؤساء يتحاشى حتى الهنات الهيئات مع مرموسيه؟ وأى الرؤساء يدرك مقدار السهام المسمومة التي يوجهها إلى نفس كنفس على «فوزى» وهو لا يرى أنها سهام أصلاً بل قد يظنها نوعاً من الملاطفة؟ - لقد رآه وزير

يكتب خطاباً بالانجليزية فأعجبه بلاغته فقال له: لعلك تحسن أن تكتب مثل هذا بالعربية! فما كان أشدها وقعاً في نفسه. ثم هو يعشق العدل المطلق الدقيق، ويؤله أشد الألام الظلم الخفيف. وكان كل يوم يرى تصرفات في الوزارات لا تتفق والعدالة التي ينشدها: هذا يحابي المتملقين، وهذا ينصر الأجانب على المصريين، وهذا يمنح ترقية وعلاوات لغير المستحقين.

ثم ما هذا النظام السخيف للدرجات؟ فهذا موظف في الدرجة الأولى وآخر في الدرجة الثانية إنه يفهم أن يبدأ الموظف بمرتبة صغير يزيد على القدم والكفاية، ولكنه لا يفهم تقسيم الموظفين إلى طبقات يعلو بعضها بعضاً، ويدل بها بعضهم على بعض.

لا. لا. ثارت نفسه على كل ذلك، ففي هدوء وسكون، ومن غير أن يشعر أحد من أصدقائه بمر أمره وأعد عدته للخروج من الوظائف الحكومية، وألح في طلب إحالته إلى المعاش، فكان له ذلك. ورضى بنحو خمسة وعشرين جنيهاً في الشهر على ثمانين وما كان يتبعها من علاوات وترقيات وحسابات معاشات.

بل ليست الوظيفة وحدها هي التي يجب الفرار منها، بل يجب الفرار أيضاً من مصر، فما مصر هذه التي يحكمها الأجنبي وتستسلم له؟ وما مصر التي يستمتع فيها صعاليك الأجانب بما لم يستمتع به سادة أهلها؟ وما مصر التي تجلس في مقهى من مقاهيها فتشعر أن الرومى الذي يقدم لك القهوة خير منك وأعز منك، ويستطيع أن يحتقرك وأن ينكل بك ولا تستطيع أن تفعل به ما يفعل بك؟ وما مصر التي لم تستطع أن تكون غنية في أطباؤها وعلماؤها وتجارها وصناعها ولم تزل عالة في كل ذلك على غيرها؟ لا بد إذن من الحرب من الوظيفة ومن مصر معا.

خرج من مصر ساخطاً غاضباً آسفاً حزينا، خرج هائماً على وجهه يمثل دور جده. لقد كان جده المملوك الشارد، فكان هو الحر الشارد خرج إلى أوروبا هائماً في ممالكها، ولكنه كان فيها مسترحماً،

جند عميد الأسرة، فأحلت الأسرة فقيدنا محله على رأس المائدة.

وكان كثيراً ما يدور الجدل على المائدة في نظريات الحرب وخصوصاً الفتي والفتاة، فكان الفتي يذهب مذهب أبيه ويتعصب لفرنسا وحلفائها، والبنت تذهب مذهب أمها وتعصب لألمانيا وحلفائها؛ ثم كان من الفتي أن طعن تركيا في سمعتها وقيمتها، ولم يكن يعرف عصية الفقيد لتركيا، فلم يعد على فوزى يطيق البقاء بعد في البيت، ولكن ماذا يصنع ووفائه يقضى بمراعاة هذه الأسرة بعد غياب عميدها، وعصيته التركية تأتي أن يسكن في البيت بعد ما كان من الفتي؟ لا يحل هذا الاشكال إلا احتقار المال، فقد تظاهر بأنه يأخذ درسا على السيدة الألمانية ودفع ما كان يدفعه أيام سكناه لم ينقص منه شيئاً وإن قلل ذهابه بعد ذلك لأخذ الدرس

وكان منظره في استانبول غريباً: يجلس في مقهى عرفه البؤساء والمحتاجون فهو يمنحهم ما أمكنه وهو الفقير الذي لا دخل له إلا معاشه الخمسة والعشرون جنياً، ينفق منها ثلثها على نفسه وثلثها على مروه، وطويل أن نعد مآثره في هذا الباب

أحب العزلة وأكثر التفكير، فهو في بيته وحده، إذ لا زوجة له ولا ولد، وفي تروضة وحده غالباً؛ هو وحده في أكثر أوقاته، صديقه الكتاب، ثم ضعفت أعصابه ففقد صداقة الكتاب أيضاً إلا نادراً، وكان تفكيره في العالم حيناً وفي نفسه كثيراً

وهذه حالة تستبج الوحشة وتستبج التشاؤم، وتستبج الحزن والانقباض، وكذلك كان شأنه

غلب عليه الحجل في غلو، والحجل — كما يقول بعض علماء النفس — سببه ككرة تفكير الإنسان في نفسه، فهو إذا مشى ظن أن الناس كلهم ينظرون إليه وينقدون مشيته؛ وإذا تكلم ظن أن الناس كلهم ينصتون إليه وينقدون كلامه؛ وإذا تحرك أو سكن أو تنفس فالتاس يعدون حركاته وسكناته وأنفاسه؛ فكان هذا الخلق فيه أكثر شقائه. وبلغت به الحالة أن كان في آخر أيامه إذا جلس في مقهى اختار مكانه وراء عمود، وإذا سكن في «بنسيون»، صحا قبل أن يصحو

نعم إنه يتكلم لغاتها ويفهم مدنياتها ولكن ليس قومها قومه، لا دينها دينه، ولا روحانياتها روحانيته. ثم ألقى عصاه في الأستانة عقب الحرب واطمأن إليها، فهي هي البلدة المستقلة بين ممالك البلاد الإسلامية؛ وهي هي التي لا تذللها الامتيازات الأجنبية؛ وهي التي يجد فيها غذاء روحه وعواطفه بمساجدها العظيمة ومآذنها التي تشق السحاب. من أجل هذا اختار السكن فيها، وفي الأحياء الوطنية لا الأجنبية، واتخذ مجلسه في مقهى تركي بلدى تحت شجرة زيزفون بجوار حائط مسجد بايزيد

ثم حاول صداقته جهدهم أن يحولوه عن رأيه ويعدلوا به عن غربته، فذهبت محاولتهم عبثاً. عرضوا عليه وظائف مختلفة الألوان كان آخرها مدير دار الكتب، فكان جوابه: متى عرفت سبب خروجي من الوظيفة وسبب خروجي من مصر لم تعرضوا هذا العرض؛ فالأصل قبل الفرع، والحرية مع الفقر خير من الذل مع الغنى

قد رزق عيناً يرى بها غير ما يرى جمهور الناس؛ فكثيراً ما كان يحتقر من يحله الناس، ويحجل من يحتقره الناس، لأن له مقاييس في التقدير تختلف عن مقاييس الناس. ليس في مقاييسه اعتبار لثروة ولا جاه، ولا منظر، ولا حسب، لا نسب.

حتى مكانه العام الذي كان يختاره لمقابلة أصدقائه لا يختاره لوجهته، وإنما يختاره لنظافته، ولأن صاحبه مسلم، ولأنه يتنفس فيه جواً شرقياً لا غربياً، ولأنه ليس فيه امتيازات أجنبية، وهكذا من اعتبارات متعددة لم أستطع أن أعرف منه إلا بعضها

ويفضل أن يزور حلاقاً كان زميلاً له في المدرسة على أن يزور باشاً من الباشوات أو من بعده الناس كبيراً من الكبراء

قد أعظمه في عيوننا صغر الدنيا في عينه؛ فليس للبال عنده إلا وظيفتان: قليلة يتبلغ به ويسد حاجاته الضرورية، وكثيرة للبرومة. وأعرف له في ذلك فصلاً غاية في السمو، فلقد كان حيناً يسكن في أسرة أوربية عبيدها فرنسي، وربة الدار ألمانية ولها ابن وبنت. حتى إذا نشبت الحرب العظمى